صاحب القصر

أحمد قاسم- مصر

وصلت وصاحبي إلى الأهرامات وحارسهم العظيم أبو الهول، تسللنا كما فعلنا في الأيام الخوالي، توقفنا عند الهرم الأكبر، تلفحنا نسمات الهواء الباردة، السماء صافية تتلألأ النجوم على صفحتها، جلسنا عند صخرة تقبع آلاف السنين، المكان بشموخه وعظمته يشتاق لزائريه، أشعل كل منا سيجارته، بغتة أشرت إلى مكان يبعد بعض الشيء حيث نجلس

فلل دي ولا قصور

ابتسم وهو ينظر حيث أشير، صفوف من الإضاءة البراقة على الجانبين، تفهمت أن لابتسامته معنى، النظرة الطويلة ذات مغزى، لم أزد حرفا وانتظرت، تنهد قائلا:

-وسط القصور دي، قصر الحاج عبد الرحمن

-شكله كدة وراه حكاية

-"الحاج عبد الرحمن رحمه الله، يملك من الشركات والمصانع والمتاجر والعقارات والأراضي وغيرها مما لا نعرفه وأموالا لا حصر لها، في الأصل تعود الثروة إلى والده محمد الغرباوي، تاجر من محافظة الغربية، أتى إلى القاهرة واستقر بها وكون ثروة حتى مماته، تزوج من ابنة عمه وانجب ابنه الوحيد بعد فترة طويلة

من زواجهما، قبلا نصحه المقربون بالزواج من أخرى لينجب وريثا، لكنه المتيم بابنة عمه ويحبها حبا جما، أبى وتحمل إخلاصا لها ووفاء لعمه فهي وصيته قبل رحيله عن الدنيا، وبموته أصبحت يتيمة الأبوين، فقد ماتت أمها بعد ولادتها ببضع ساعات، لها أخ وحيد يكبرها هاجر إلى أوروبا ليكمل دراسته، استقر وتزوج ومضى في حياته وماتت لديه الرغبة في العودة، اكتفى بمراسلاته واتصالاته بأخته كلما سنحت الفرصة، وكعادة الابن الوحيد المولود في فمه ملعقة ذهبية أن يكون مدللا، طلباته مجابة ورغباته أوامر، الكل رهين إشارته، وقد كان، إلا أن الأب حفاظا على ابنه الوحيد وخوفا عليه كان يحول بينه وبين رغباته التي قد تفسد أخلاقه، فأحضر له علماء الدين، درسوه القرآن فحفظه كاملا في سنواته السبع الأولى، والتحق بالمدرسة واجتهد لدخول الجامعة وقد كان أن التحق بكلية التجارة، وكما جرت العادة فقد أحب زميلته "نادية"، تعاهدا على الزواج بعد سنوات الدراسة، حكى لها الكثير عن أسرته وبالأخص خاله الوحيد ونجاحه، تشبع فؤادها بحب السفر والرغبة في تحقيق آمالها في أية دولة أوروبية، لا أمل لها هنا، رغبتها اعترضت هدفه الذي يسعى إليه، إكمال ما بدأه والده، حلم تكوين إمبراطورية الغرباوي، تكبر وتتسع لتتجاوز حدودها القطر المصري، أن تكون له بصمة في أرجاء العالم، وافقت على مضض حتى تنتهي سنوات الجامعة، وأمام أنوثتها الطاغية وفتنتها سيرضخ لها ويحقق هدفها..

لكن الأب لم يترك ابنه سدى، جند جيشا بأكمله يسعى خلفه ليعرف كل شاردة وواردة، خطواته، أصدقائه، من يقترب منه ومن يبتعد، ابنه الوحيد ومن حقه أن يحافظ عليه من نفسه ومن الجميع، عرف بقصة حبهما فلم يقبل بها، والابن تربى على طاعة أبيه لا يحيد عنها، رأى في رغبة أبيه فرصة للخلاص من عشق ضيَّق عليه الخناق، يحول بينه وبين هدفه، لا أمل في إقناعها بمراده، ولا أدنى فرصة في التخلي عن رغبتها، ثرائه الفاحش سيشق لها الطريق ويذلل الصعاب، بينما ضج من كثرة حديثها عن السفر والآمال التي تنتظرهما على أعتاب القارة العجوز..

افترق عنها وابتعد دون مقدمات، وإمعانا في أن يحلق بعيدا عن سماءها، قبل عرض أبيه بالزواج من إحدى قريباته، وسافروا إلى بلدتهم، رأى العروس وأُعجب بها وأُقيم العرس في ليلة تحاكى عنها الناس ولن تغيب ذكراها لسنوات، عاد بعروسته إلى "فيلتهم" وانتقى غرفة لتصبح عشهما الهانئ قبل إنهاء عامه الثاني في الجامعة، في السنة الثالثة حاد عن إكمال تعليمه مكتفيا بما وصل إليه وشرع في تحقيق هدفه، فالأب وهنت قواه ولم يعد قادرا على مواصلة العطاء..

أما محبوبته فقد أصابها الجنون وارتبكت خطواتها واضطربت حياتها، مال بها الطريق وابتعدت عن مبتغاها، آمالها أصبحت طي النسيان، ضجت بسنواتها الجامعية واكتفت هي الأخرى، تزوجت شاب يكبرها بأربعة أعوام، موظف في قطاع حكومي، راتبه معقول إلى حد ما، ورث شقة يتيمة عن والديه في حي مصر الجديدة، للمصادفة أن حدث ذلك بعد زواج عبد الرحمن وإنجابه "فتحي وفريد

وفاتن"، ثم أصيبت زوجته قبيل بلوغها الأربعين بمرض في ساقها، أبطأ حركتها وسمنت وما عاد بإمكانها تلبية رغبات الزوج، على النقيض أنجبت نادية ابنة وحيدة اسمتها "مريم"، وما إن بلغت العاشرة حتى توفي والدها، فكرست حياتها من أجلها، رفضت الزواج رغم صغر سنها وجمالها الذي بدأ يخبو، وينتقل بريقه لابنتها..

سنوات تلتها أخريات، كبر الأبناء وكبرت أحلامهم وتحققت آمال وأحلام أولاد الحاج عبد الرحمن، عدا فاتن التي آثرت البقاء بجوار والدتها تخدمها وإن تزوجت وهو ما لم يحدث حتى وفاة والدها..

في تلك الفترة التحقت بشركة خاصة للحاج، تركها له ابنه الكبير المهندس فتحي الذي استأثر هو وأخيه بكل شيء واقتسما ثروته، دونما أوراق رسمية أو وراثة شرعية إلى وفاته عندما آل إليهما الجمل بما حمل، تركا القصر الجديد لأمهما القعيدة وأختهما مع نصيبهما الشرعي، وعاش كل منهما حياته الخاصة مع أسرته..

في الشركة التي تركاها طوعا ليديرها الأب ويشغل نفسه بها، تم قبولي للعمل كمشرف على طاقم الأمن، ساعدني في الحصول على الوظيفة وساطة أحد الأقرباء..

طيبة قلبي التي اتصف بها بشهادة الجميع، كان لها أثرا في أن أكون محل ثقة الحاج، وفي كثير من الأحيان كاتم أسراره الأمين، أقضي معه الكثير من الوقت، لا أدري فيم كل ذلك، أن تجمعني الأقدار برجل يطمح الكثير ليكونوا تحت إمرته

ورهن إشارته، لا مستودع أسراره، يأتمنه على الكثير منها، خاصة ما حدث قبل وفاته بعشرة أيام، حين مكث لوقت متأخر عن العادة، غالبا لا تأتي الخامسة مساء إلا وقد غادر الشركة، ثم استدعاني إلى مكتبه..

-اقفل الباب وراك

أغلقت الباب مندهشا ليس لاستدعائي، هو غالبا ما يفعل ليحدثني كثيرا، عرفت في فترة قصيرة الكثير عن حياته، لكن دهشتي لبقاءه إلى هذا الوقت..

افتح التلاجة وهات اتنين كولا، ولو عاوز تدخن براحتك، انا عارف انك بتدخن، ومش عاوزك تستغرب لو قلتلك إني اعرف كل حاجة عنك، أنا اعرف كل حاجة عن كل موظف في الشركة...

توقف عن استرساله مشيرا إليَّ بإحضار ما طلب، فقد تسمرت بمكاني احتراما لحديثه..

-مش عاوزك تستغرب ولا تسأل نفسك "هوة اشمعنا أنا ودونا عن اللي في الشركة الحاج مصاحبني خصوصا ان في اقدم مني وانا بقالي فترة قصيرة جدا؟"

-العفو...

أشار إليَّ بالسكوت أو السكون، أيهما لا فارق أو الاثنان معا، فالتزمت الصمت بل تحولت إلى حجر أصم..

-في حاجات قدرية كدة بتحصل للواحد من غير ما يعرف ايه السبب وليه، بس هضيف جزء صغير، اعتبرها وجهة نظر راجل له خبرته في الحياة، رغم ان ما فاتش عليك كتير هنا، بس لقيتك طيب ومعدنك أصيل، وابوك راجل محترم..

لم أجد وصفا لما اعتراني من مشاعر، فقد اضطربت حواسي بأكملها، بالرغم من ذلك ابتسم وهو يكمل...

-كنت متوقع رد فعلك دة، للأسف دة العيب اللي ورثته عن أبويا الحاج محمد الغرباوي، هوة علمني حاجات كتير كويسة، بس من غير ما اخد بالي، اتعلمت ازاي اقدر اتجسس على الناس، وأعرف كل حاجة عنهم، هوة عمل معايا كدة وكان بيتجسس علية وبيراقبني، هنسميه خوف أو اي حاجة تانية بس هوة دة اللي حصل..

صمت لوهلة ارتشف فيها قطرات من الكولا، أحسست أنه يتجرع خمرا، كان استرساله منتظما ودقيقا، يرتجل بطبيعة متناهية، أدهشني حقا يومها..

-إلا حاجة واحدة بس، مش عارف أو مش قادر اعملها، عشان كدة أنا هكلفك بمهمة محدش هيعملها غيرك، يعني هتقوم بيها لوحدك وفي السر

كنت كالأبله ينصت عاجزا عن الإتيان بأي أمر.. أهز رأسي فحسب، بينما أخرج هو صورة لفتاة رائعة الجمال، أُدرك أنني رأيتها من قبل..

-عاوزك تعرف كل حاجة عنها، قدامك اربعة وعشرين ساعة، بالمناسبة هية

اسمها مريم وشغالة في الشركة من ست شهور في الحسابات..

الآن تذكرت أين رأيتها، أفقدتني صدمة المهمة القدرة على التفكير، قبل انصرافي منحني مبلغا من المال لأنجز المهمة في أسرع وقت، وبالفعل لم تكن المهلة انقضت، حتى عرفت كل صغيرة وكبيرة عنها، ولا يدور بعقلي سوى سؤال واحد، ماذا فعلت تلك الحمقاء لتفقد الرجل صوابه ويعجز معها عن فعل ما دأب عليه مع الناس أجمعين؟ وأن يكلفني بتقصي حقيقتها وجمع كل شيء عنها، حتى بعد توصلي لمعرفة كل ما يمت إليها بصلة، عجزت عن التوصل إلى المغزى من ذلك إلا بعد حين..... ثم ألقيت كل ما في جعبتي إلى الرجل، راودني شعور غريب أنه يعرف كل ما قصصت عليه

- انت تعرف انا عندي كام سنة؟
- لا معرفش...
- خمسين سنة
- ربنا يديك الصحة وطولة العمر..
- ايوة الصحة أحلى دعوة، إيه رأيك أنفع اتجوز بس قبل ما تجاوب لازم تعرف ان اللي هتجوزها أصغر مني بخمسة وعشرين سنة..
- هوة حضرتك ناوي تتجوز البنت اللي...
- ايوة.....

- هوة مفيش مشكلة من الجواز طبعا، بس ولاد حضرتك وزوجتك..

لم أجد غضاضة في إجابتي، هو قوي البنيان وسيما رغم سنواته الخمسين، بينما زم شفتيه في استياء، على وجهه ملمحا من سخرية بالحياة وما فيها

- انت فاكر اني هخاف من ولادي أو مراتي، مراتي عيانة ومبقتش قادرة على تلبية احتياجاتي كراجل، فاهمني..

حركت رأسي للأسفل موافقا رأيه بينما أكمل هو..

- صحيح انت مش متجوز، بس الحاجات دي طبيعة في الراجل، بتزيد كل ما بيكبر، ويحس إنه قرب من الموت، الرغبة في الحياة بتزيد... فاهم.....

أومأت برأسي وقلت سرا "مراهقة متأخرة، سمعت عنها"

- طب ولاد حضرتك
- ولاد حضرتي، آخر حاجة أفكر فيها، اعرف عنهم اللي فاكرين اني معرفوش، صفقاتهم الأخيرة مع رجال اعمال مشبوهين، عاوزين يلوثوا اسم الغرباوي على اخر الزمن، يهدوا اللي بنيتوا في سنين عشان غبائهم، عاوزين ايه تاني؟ فلوس! معاهم اللي يسد عين الشمس، ولولا اسمي وسمعتي وشغلي مع الحكومة، كان زمانهم في سين وجيم ولبسوا البدلة

الزرقا.. خلاصة الكلام أنا هتجوز البنت دي يعني هتجوزها، برضاهم أو غصب عنهم، وانت هتساعدني في الخطوة دي..

- تحت امرك
- عارف مريم دي تبقى مين؟
- لا..
- طبعا وانت هتعرف منين انا هقولك..

قص ما ذكرته عن محبوبته نادية، حبهما وفراقهما كزهرة أفرط كل منهما في سقياها فغرقت... ران الصمت علينا للحظات حتى بادر بسؤال

- ايه رأيك دلوقتي بعد اللي حكيته، تفتكر أمها هتوافق ولا هترفض؟!
- مش عارف..
- بكرة هنعرف ودي مهمتك، هتستنى تحت بيتها الساعة اتناشر الضهر، وأول ما تتأكد إنها لوحدها تكلمني، وتفضل متابعني إن مفيش حد نزل ولا طلع، مفهوم؟

في تمام الموعد كنت أسفل البناية، مُرتديا حُلة سوداء أصر الرجل على ذلك، دون أن أعرف السر إلا حين وصل واصطحبني معه..

أذهلتها المفاجأة، سنوات لم تره منذ اختفاء أثره وانسحابه من حياتها دون كلمة أو وداع أخير، خاب توقعي فعلى النقيض مما ظننت رحبت به وأدخلته بيتها، دلف وعلى وجهه ابتسامة ملء ثغره منتصرا في معركة الماضي، ها هو قد اندثرت ذكراه، لو كان حيا بين ضلوعها لما خطا تلك الخطوة.. جلسنا بعد أن وضع علبة من الشيكولاتة الفاخرة على طاولة صغيرة أمامنا، حقيقة لا أدري لم اصطحبني؟ ربما لأكون شاهدا على أغرب قصة عايشت أحداثها بنفسي! ربما هي أحداث قدرية كما أخبرني من قبل!

- والله زمان يا حاج..
- أنا اسف اني جيت من غير معاد
- البيت بيتك تشرف في اي وقت

بدأ اللقاء وانتهى دون أن أصدر همسا أو أقول حرفا، كنت كقطعة أثاث مزدان بها البيت، وبيتها راقيا جميلا، ووجهها أجمل رغم آثار الزمن عليه، لا ريب أن عمرها يوازي عمره.. تطرقا إلى بعض الأمور عن حياة كل منهما، دون استدعاء للماضي، وظني أنه آلم كل منهما، لكن آلامها لم تكن بقدره، بل تضاعفت آلاف المرات، بينما هو حقق أحلامه وما يربو إليه، وهي التي كُسرت وضاعت أحلامها ولن تجبرها ملايين الاعتذرات، هو لن يعتذر وهي لم تُبدِ ندما على الماضي، حتى بلغا النقطة الفاصلة، حين أخبرها بمراده..

- انت عاوز تتجوز بنتي؟
- ايوة
- انت عارف طلبك معناه ايه؟

إنه لعجب العجاب مجادلته فيما أراد، لو كنت مكانها لطردته فورا، ليس لفارق السنوات بينهما، بل لاعتبارات الماضي فحسب، لست أدرك في صف أي منهما أقف، أنا الحائر بينهما مكبل القدمين بحجر ضخم ألقي به في قعر محيط حالك السواد، لكن في حقيقة الأمر إن كان حالهما كذلك، فليحترقا معا في الجحيم ولن أبالي، دوري كجمهور يشاهد مسرحية هزلية يصفق بحرارة لمن يؤدي دوره في براعة، أو يهتف باسم البطل في النهاية، ونهاية اللقاء كانت أغرب من كل ما مضى، فقد طَلبت مهلة تستشير ابنتها وتخبره أيا كان ردها....ثم انصرفنا إلى حين..

مضى يومان تغيبت فيهما "العروس المرتقبة" عن العمل، أكاد أتخيل ما دار بينها وبين أمها، حدثتها فرفضت في استماتة، حاولت إقناعها مرة تلو الأخرى، وهي تجادل وتصرخ بالرفض، أكاد أجزم أنها منحته لقب "العجوز المتصابئ" ثم صارحت أمها بحب جارف بينها وبين شاب في مقتبل عمره، سيبنيان بيتهما بالحب والسعادة، كما في الروايات الرومانسية، بينما العجوز المتصابئ كان على أحر من الجمر، قلبه معلق بهاتفه ينتظر أن يرقص فرحا أو يتمزق هلعا..

قاطعت صاحبي بكلمات لاذعة وأنا منزعج من تصور الأمر، هل يشتري الرجل بذرة حبه القديم بأمواله؟..

في صبيحة اليوم التالي كان الحاج يحادثني في بعض الأمور، وإذ بالمفاجأة الكبرى، طرقت مريم الباب ودخلت، تخيلت أنها بكل غضب الدنيا ستصرخ في الرجل تأمره بالبعد عنها، تذكره بفارق السن بينهما، بأولاده الذين هم في مثل عمرها، أو تلمح بإشارة عابرة إلى الماضي، ثم تلقي باستقالتها في وجهه وتنصرف كما أتت..

لكني انتبهت إليه يأمرني بالانصراف، ظلت عيناها معلقتان بي حتى أغلقت الباب عليهما..

- وطبعا معرفتش ايه اللي حصل بينهم
- طبعا عرفت، الحاج قالي كل حاجة، قلتلك انا اعرف كل حاجة لحد ما مات وجزء صغير بعدها، دة غير اللي عمله المهندس فتحي معايا..اللي حصل إنها وافقت وان كتب الكتاب يكون بعد اربع ايام والفرح بعدها بكام يوم، طلب منها إنه يكون في السر، هيجيب المأذون والشهود ويكتبوا الكتاب في بيتها ويطلعوا على الفندق اللي هيحجز فيه، اعترضت على الفندق، قالها عنده شقة كويسة هيجزها في ظرف يومين، ومضى شيك على بياض تحط فيه المبلغ اللي هية عاوزاه هدية منه، وعرف انها

صرفته في نفس اليوم.. وكل حاجة حصلت واتنفذت بالحرف الواحد، لحد ما.....

توقف عن الحديث، أخرج حافظة نقوده، انتقى ورقتين مطويتين مقطوعتين بعناية من جريدة ما، اطلعني على ما بها.....

"وفاة رجل الأعمال عبد الرحمن الغرباوي إثر أزمة قلبية حادة"

الورقة الأخرى حملت خبرا غريبا "شبهة جنائية تحوم حول وفاة الغرباوي ليلة زواجه، النيابة تأمر بتشريح الجثة والتحفظ على زوجته الشابة"

قرأت تفاصيل الخبر الثاني: الوفاة حدثت أثناء تناوله عشاء دسما، الشبهات تحوم حول زوجته بعدما تقدم ابنه المهندس فتحي باتهامها بقتل أبيه..

- تخاريف، ايه مصلحتها في قتله..
- سحب الورق من يدي وهو يقول "هوة ملمسهاش"
- يعني ايه وعرفت ازاي؟

تنهد تنهيدة حارة أحسست بلفحها في وجهي رغم برودة الجو، ثم أكمل...

بعد وفاة الرجل بأسبوع، اصطحبني رجل لمقابلة ابنه المهندس فتحي، بحق تعامل معي بكل ود واحترام، كأنه صديق حميم..

- أنا هدخل في الموضوع علطول، انت شهدت على عقد الجواز بتاع الوالد، عاوز اعرف كل حاجة عن الجوازة دي؟!

أخبرته بما قصه والده عن حكايتهما حتى عقد القران، كان مستمعا جيدا، لم يقاطع حديثي ولم يتطرق إلى جدال جانبي أو سؤال عرضي، حتى انتهيت فتحرك نحوي وسلمني مبلغا من المال، وطلب مني البحث عن عمل آخر، أخبرته أنني سأفعل، قبيل انصرافي همس لي بأن والده توفي قبل أن يمس العروس، تفهمت عبارته ثم انصرفت..

- قصده إيه؟

- بيعرفني ان أبوه مات مقتول، يا البنت يا أمها يا الاتنين..

ربما ألقت الأم بابنتها في طريق الرجل انتقاما منه، ربما علمت الإبنة بأحداث الماضي الأليم لأمها فسعت للثأر لها من غدره، ربما أراد الرجل تعويض حبه القديم أو تكفيرا عن ذنبه فيما سببه لها من ألم..... كل الاحتمالات واردة، إلا أن يكون الأمر صدفة، لابد وأن أحدهما ارتدى قناع الشيطان ومارس دوره باقتدار، أو هو فعل إنسان ملأ الشر قلبه.. دوامة من الحيرة أصابتني بما قصه صاحبي عن صاحب القصر، فلم أنم ليلتها، ما تعجبت له هو مروره في أيام الرجل الأخيرة كعابر سبيل عايش أحداثا ليس له يد فيها، ولا تمسه من قريب أو من بعيد..